منهج الجاحـــظ في الـــرّد على النصارى

أ. مصباح رمضان ضو مسعود ـ كلية التربية يفرن ـ جامعة الزنتان

تقديـــــم:

الحمد لله رب العالمين، فاطر السموات والأرض، جاعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولي المتقين، وهاديهم إلى الحق المبين، وإلى صراطه المستقيم، وأشهد أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه ، جعل محمدا - عليه السلام- خاتم النبيين ، وأكمل له ولأمته الدّين ، وبعثه على حين فترة من الرسل ، وظهور الكفر وانعدام السبل ، فبزغ به نور الإيمان ، وقمع به أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان ، وأظهر به ما كان مخفياً عند أهل الكتاب ، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب ، وحقق به صدق التوراة والإنجيل.

أسباب اختيار الموضوع :

عدم وجود بحوث علمية أكاديمية تبيّـــن منهج الجاحظ ، وإسهامه في مجال الرد على أهل الأديان، ثم الوقوف على القيمة العلمية والفكرية لمنهجه فيما يتعلق بالرد على النصارى ، و- أيضا - شهرة الجاحظ في مجال الأدب والشعر، ولم يعرف عنه اهتمامه بالعقيدة والأديان، لذلك لزمت الدراسة والبحث ، وقد كان المصدر الرئيسي لهذه الدارسة هو رسالة الجاحظ في الرد على النصارى ، وهي ضمن مجموعة من الرسائل القيمة للكاتب ، ولم يعثر له على غيرها في هذا الموضوع.

إشكالية البحث :

اشكالية البحث حصيلة من الأسئلة المحوريـــة التالية:

من هو الجاحظ؟ وما هي منطلقات الجاحظ الفكرية في الرد على النصارى؟ وهل اطلع الجاحظ على العقيدة النصرانية من مصادرها أم لا؟ وما هي الآليات التي اعتمد عليها في الرد على النصارى؟ وما هو موقف الجاحظ من الكتاب المقدس؟ وهل وفق الجاحظ وفق الجاحظ في الـــرد على النصارى أم لم يوفق؟

وللإحاطة بموضوع البحث لزم الإجابة المستوفية لهذه المحاور الأساسية في الدراسة وما استجد عنها من قضايا تخدم موضوع البحث عنوان البحث مكـــون من عدة مصطلحات ، وجب تحديدها ، وضبط معانيها ، والغرض من ذلك إزالة الغموض

من جهة وتحديد مجال البحث من جهة أخــرى، حتى يتم بذلك تصور كلى حول الموضوع.

أهمية البحث :

تكمن أهمية الموضوع في الآتــي :

إن الله أقام لدينه رجالاً أعلاماً دافعوا عليه بكل ما استطاعوا ، ومن أشهر هــؤلاء أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ ، الذي اختط في رده على النصارى منهجاً عقلياً كلاميا اعتبر غير مألوف من قبل ، فقد تناول رده مجموعة من القضايا المعروفة لدى النصارى ، لذلك اخترت موضوع منهج الجاحظ في الــرد على النصارى، والجاحظ شخصية من شخصيات التراث الإســلامي التي لها باع في علوم كثيرة ، وكــون الموضوع يكشف لنا الأسس المعرفية ، والخصائص المنهجية للجاحظ في نقد الديانة النصرانية ، ثــم الاستفادة من منهج الجاحظ في مجال المناظرة مع النصارى.

مصطلحات البحث :

المنهــــج : هو مجموعة العمليات والتساؤلات الذهنية التي تتوخـــى الوصول إلى إجابات و نتائج صحيحة.

النصــــارى: يــرد بها الجانب العقدي المتمثل في أقوال ومعتقدات النصارى التي تناولها الجاحظ ، والتساؤلات التي أثيرت في ذهنه .

النصرانيــــة : قيل إنها نسبة إلى الناصرة , وهي قرية المسيح عليه السلام, وتسمى هذه القرية ناصرة ونصورية , والنسبة إلى الديانة نصرانية, وجمعه نصارى.([1]) .

الفــداء : هو اعتقاد النصارى أن موت المسيح كان كفارة لخطيئة آدم التي انتقلت إلى أبناءه بالوراثة ويزعمــون بذلك أن مستندهم الكتاب المقدس.

منهجية البحث :

لم أجعل ضمن منهج هذا البحث أن أنقض كل عقيدة تؤمــن بها النصرانية - سواء كان النقض من مصادرنا أو من مصادرهم - لأن هذه القضية – أي : الرد على هذه العقائد مما حفلت به الكتب التي صنفها علماء الإسلام قديما وحديثا ، وإنما أردت أن أذكر بعض من العقائد الأساسية في الديانة النصرانية ؛ التي تناولها الجاحظ

خطة البحث :

استوجب البحث أن يكون في مقدمة وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، ففي المبحث الأول : الجاحظ ، ميلاده وحياته وفاته , مذهبه ، والمبحث الثاني : عقائد النصارى، والمبحث الثالث : منهجه في الرد على النصارى.

المبحث الأول ــ حياتـــــه و نشأتـــــه و تعليمـــــه وأسلوبه:

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الليثي البصري، ولقبه الجاحظ و الحدقي ، لبروز عينيه وكنيته أبو عثمان . والجاحظ ، إليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ولد في البصـــرة بالعراق سنة 163 هـ الموافق لعام 776م ، ونشأ يتيماً فقيرا ؛ ولكنه أصبح غنياً بعلمه ، حيث انكب على نهل العلم، وذهب إلى المساجد ومراكـــز العلماء، وسوق " المربد" الذي كان مركـــزاً يلتقي فيه الأدباء والشعراء وأهل اللغة ليقيموا فيه ندواتهم ، فتلقى العلم على بلغاء اللغة من العرب، وطلبه في سن مبكّرة ، فقرأ القـــرآن على شيوخ بلده ، وبسبب اليتم والفقر صار يبيع السمك والخبز في النهار ، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل ، فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته حتى أصبح الجاحظ كاتبا عبقريا مشهورا في العالم العربي ، وتميزت كتاباته الجاحظ بالقدرة على عرض صور ونماذج من واقع الحياة الاجتماعية ([2])، وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القريحة وقوة العارضة والتفكير ما جعله من كبار أئمة الأدب في البلاد العربية.([3])، ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، فلقد كان قصير القامة ، صغير الرأس، ذميـــم الوجـــه ، صغير الأذنين، دقيق العنق، قوي البنية، نشيط الجسم ، ومشوه الخلقة([4]) ، ذميما قبيحا ؛ وإنّما جاءه السواد من قبل إحـــدى جدّاته في عمود نسبه، ، لكنه كان خفيف الروح ، حسن العشرة، وظريف النكات، يتهافت الناس إلى الاستمتاع بنوادره ، فهو " إمام فـــذّ من أئمة البيان في العربية، وليس من الإســـراف والمغالاة أن نعدّه زعيم البيان العربي في قوته ، وأسره، وفي دقته، وصحته، وحلاوته، وجماله ، وفنّه، نظراً لثقافته الواسعة واطلاعه الدائم، وبحثه وراء العلم ، وأخذه من مصادره من علماء وشيوخ اللغة وهو أحد زعماء المكتبة العربيّة التي كانت في الصدر المقدّم من مكتبات الدنيا، "([5]) تنوعت مؤلفاته في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء وغيرها. ومن أشهر كتب الجاحظ : البيان والتبيين ، والحيوان، والبخلاء، وكتاب البغال ، وكتاب الفتيان، وكتاب القوّاد، وكتاب الوكلاء المتوكّلين، وكتاب الشارب والمشروب، كتاب المعلّمين، وكتاب الجواري، وكتاب نوادر الحسن، وكتاب العرجان والبرصان، وكتاب التربيع والتدوير،

وكتاب الطفيليين، وكتاب أخلاق الملوك، وكتاب الفتيا، و كتاب الحاسد والمحسود، ونجد في كتب الجاحظ ورسائله أسلوبين بارزين مهمين: أسلوب أنيق ويكاد يكون هذا الأسلوب مقصوراً على مقدّمات كتبه ومطالع فصوله، ثمّ له أسلوب يجري فيه على السليقة ويعالج به الموضوعات التي يتناولها في متون كتبه.(6) ؛ ذلك الفن الجديد في الكتابة الذي لم يسبقه اليه أحد، وتفرد بخصائص ومميزات فريدة ،لأن مدرسة الجاحظ ضخمة ، فمسيرة الأدباء على هذا الدرب تتابع وتستمر حتى عصرنا الحديث ويتطلع إليها طلاب الأدب في عصره وما تلاه من العصور. وكانت له جولة و صولة في الأدب العربي ، وكان يعشق القراءة فلم يدع كتاباً قط يصل إليه دون أن يتم قراءته، ومما يدل على شغفه بالقراءة، أنه كان يستأجر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر و للاطلاع على ما فيها من كتب.(7) ، وقد ذهب الجاحظ وراء العلم فانتقل من البصرة إلى بغداد ليتصل بمفكريها ، فالتقى مع الأصمعي والأنصاري وأخذ اللغة عنهما، كما اتصل بالأخفش وأخذ عنه النحو، والنظّـــام وأخذ عنه علم الكـــلام، واطلع على الثقافة اليونانية ، وارتاد البادية ليأخذ اللغة والأخبار، وزار الجاحظ دمشق وانطاكية ؛ وذلك من أجل التعمق في الثقافة واللغة والأدب.

أما أساتذة الجاحظ الذين تتلمذ عليهم و رَوَى عنهم في مختلف العلوم والمعارف فهم كثيرون جدًّا، وهم معظم علماء البصرة إبَان حياته، المظنون أنَّ الجاحظ لم ينقطع عن حضور حلقاتهم. ولكنَّ مترجميه يكتفون بقائمةٍ صغيرةٍ منهم غالباً ما تقتصر على العلماء الأَجِلَّة المشهورين، ومهما يكن من أمر، وبناءً على بعض المصادر، نستطيع القول: إنَّ أهمَّ هؤلاء الأساتذة هم كما يلي :

في ميدان علوم اللغة والأدب والشِّعر والرِّواية: أبو عبيدة معمر بن المثنَّى التميمي والأصمعي وأبو زيد بن أوس الأنصاري ومحمد بن زياد بن الأعرابي وخلف الأحمر وأبو عمرو الشَيباني وأبو الحسن الأخفش وعلي بن محمد المدائني.، وفي علوم الفقه والحديث: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ويزيد بن هارون والسري بن عبدويه والحجَّاج بن محمد بن حماد بن سلمه بالإضافة إلى ثمامة بن الأشـــرس الذي لازمه الجاحظ في بغداد.، وفي الاعتزال وعلم الكلام: أبو الهذيل العلاَّف والنَّظَام وموسى بن عمران وضرار بن عمر والكندي وبشر بن المعتمر الهلالي وثمامة بن أشرس النُّميري، وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور.(8)

فلا شك أن الجاحظ رمـــز من رموز الأدب العربي الاسلامي كما أنه ليس مجرد كاتب أو مؤلف للكتب ولا أحد من المهتمين بالأدب العربي فقط ؛ بل هو عالم مدقق وباحث

محقق وإمام فذّ وزعيم البيان العربي ، فشخصيته العبقرية تتسم بالموسوعية وتعدد الاهتمامات الفكرية تتداخل لديه المعارف والخبرات حيث يصعب أن يدرس جانب من فكره بعيدا عن الجوانب الأخرى. كان كثير التأليفات والتصنيفات والرّسائل كما أنه كان جامع العلوم والفنون، صاحب الفضل والكمال وأنّه كان عظيم الذكاء قويّ الملاحظة وواسع التدبير والتفكير، وكانت شخصيته الموسوعية كدائرة معارف.

خصائص أسلوبـــــه : يعد أسلوبه أحد المميزات الكبرى التي يمتع بها ، فهو سهل واضـــح فيه عذوبة وفكاهة واستطراد بلا ملل ، كما توجد فيه موسوعية ونظر ثاقب وإيمان بالعقل لا يتزعزع، عرف أسلوبه بإيقاعية وقصر عباراته واستطراداته ، مع روح ساخرة سخرت من كل أشكال القبح في عصره حسِّيًا كان أو معنويًا. وأوتي مقدرة بيانية مكَّنته من مدح الشيء وذمّه ، وللجاحظ في كتبه أسلوبان: أسلوب أنيـــق (فيه صناعة وموازنة وسجع وتأنّق في اختيار الألفاظ وترديد للمعنى الواحد في تركيب مختلفة). ويكاد يكون هذا الأسلوب مقصوراً على مقدّمات كتبه ومطالع فصوله. ثمّ له أسلوب يجري فيه على السليقة ويعالج به الموضوعات التي يتناولها في متون كتبه.([9])

اعتزال الجاحظ ونزعته الحـــرة في التفكـــير: سبق وأن ذكرنا أن الجاحظ تلقى الاعتزال عن أبي إسحاق النظّام فكان بطبيعة الحال يتميز بحرية التفكير ، والاعتماد على العقل إماماً ومعياراً أساسياً في الشرع ، واستنباط الاحكام والمعتقدات دون الاطمئنان الى الحديث والنقل ؛ بل أنه تجاوز ذلك الى رد الكثير من الأحاديث ، وهاجم في كتاباته بشدة الفقهاء والمفسرين ونقلة الأحاديث من المذاهب والاتجاهات المختلفة، كالسنة ، و الشيعة، والمتصوفة([10]) ، فالجاحظ علماً معروفاً من أعلام الاعتزال ، وإليه تنسب الفرقة المعتزلية التي عرفت به حيث يطلق عليها اسم الجاحظية.([11])

المرض والوفـــــاة : اشتد المرض بالجاحظ في أواخـــر أيامه فأصيب بالفالج ، وقال المبرد يصف حاله: " دخلت على الجاحظ في آخـــر أيامه ، فقلت له: كيف أنت؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حـــزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس ، لو طار الذباب بقربه ألمه ، واشدّ من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها " ([12]) ، وعلى الرغـــم من شدة المرض إلا أن المرض لم يكن هو السبب في وفاته ، ولكن كان علمه هو السبب حيث يقال إنه توفـــى بعد سقوط قسم من مكتبته فوق رأسه، يعني : سقطت عليه مجلّدات من كتب ، وكانت وفاته سنة 255 هـ الموافق : 868م ببلدة البصرة وعمّره نحو ستّ و تسعين عاماً.([13])

وصفوة القول أن الجاحظ كان أُمّـــــة ، وكان دائرة معارف ، لانزال نتلمذ على تراثه العلمي حتى اليوم ، وننهل من فيض أدبه وغزير علمه ، ونمتع الروح والنفس برواية فكاهاته ، والتحدث عن سخرياته ، ويندر أن نجد أديباً ، أو باحثاً في الأدب ، وناقداً ، أو فكاهياً ، أو صاحب مذهب ديني ، أو فكري ، إلاّ وفي كتبه مقتبسات من الجاحظ ، واستشهاد بآرائه ، ويكفي دليلاً على سبقه وفضله ، وصلاحيته، وأسلوبه ، وفكره ، أن اسمه سيظل باقياً على امتداد الأجيال

المبحث الثاني ـ عقائد النصـــــارى:

النصارى ، الذين يزعمون أنهم يتبعون المسيح عيسى - عليه السلام,- وكتابهم الإنجيل ، وقد أطلق على أتباع الديانة النصرانية في القرآن الكريم نصارى, وأهل الكتاب, وأهل الإنجيل، وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح - عليه السلام- , ويسمون ديانتهم المسيحية ، ولم ترد التسمية بالمسيحية في القرآن الكريم ولافي السنة النبوية , كما أن المسيح حسب الإنجيل لم يسم أصحابه وأتباعه بالمسيحيين ، وهي تسمية لا توافق واقـــع النصارى لتحريفهم دين المسيح - عليه السلام.- ، فالحق والصواب أن يطلق عليهم نصارى , أو أهل الكتاب, لأن في نسبتهم للمسيح - عليه السلام - خطأ ظاهر؛ إذ يلزم من ذلك عــزو ذلك الكفر والانحراف إلى المسيح - عليه السلام- , وهو منه برئ.([14])

عقائد النصـــــارى: تعتقد النصرانية عقائد كثيرة مخالفة لما جاءت به الأنبياء والمرسلون - عليهم الصلاة والسلام- ، وبعض هذه العقائد انتقلت إلى النصرانية من ديانات وثنية ، هذه الاعتقادات شركية كادعاء أن المسيح - عليه السلام- ابن الله، وعقيدة التثليث، والصلب ، واتخاذ الأحبار أربابا. .. ، وغيرها ، ولذا حكم القرآن العظيم على النصارى بأن فيهم كافرون مشركون، وأنهم يضاهون قول الكافرين، كما حكم عليهم بالكفر في آيات كثيرة كما في سورة النساء والمائدة والبينة وغيرها، وتتابع العلماء المسلمون على مر العصور ينهلون من القرآن والسنة أحكامهم وعلى ضوئها يبْنون تعاملاتهم، كما صنفوا المصنفات الناقدة لهذه الديانة فكانت النتائج التي توصلوا إليها موافقة لما في القرآن والسنة، ومطابقة لواقع الديانة النصرانية، ومن العقائد الاساسية لدى النصارى:

عقيدة التثليث : المقصود بالتثليث عند النصارى كما يُذكر في قاموس الكتاب المقدس هو: إله واحد الأب والابن والروح القدس إله واحد , جوهر واحد متساوين في القدرة والمجد.([15]) ، ومعنى ذلك طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب, والله

الابن ,والله روح القدس, فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن, وإلى الابن الفداء, وإلى روح القدس التطهير.([16])، ومما لا شك فيه أن هذه العقيدة متناقضة , وغير معقولة , فهم يحاولون بتفسيراتهم لها أن يجمعون بين التثليث والتوحيد المذكور في نصوص التوراة ؛ إذ أنه من مصادرهم , ويؤمنون به كما سبق ، ويطلقون عليه العهد القديم ، وقد وردت فيه نصوص عديدة في توحيد الله , وقولهم في التثليث جمع بين الضدين , لأن الوحدانية تنفي الشرك، والشرك ينفي الوحدانية, فنجدهم يجتهدون في تفسير هذه المتناقضات، ويتبين من خلال المقارنة بين نصوصهم عدم صحة هذه العقيدة , وصعوبة إدراكها ، والتسليم لها ما ذكره قساوستهم , وفي كتب الأصول عندهم ، وقد رد الله في القرآن مبينا غلوهم وانحرافهم عن الجادة ، قال – تعالى- : {**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً**} ([17])

عقيدة الصلب والفداء : ومرادهم بالصلب : هو التعليق على خشبة الصليب , واليهود والنصارى يعتقدون أن المسيح - عليه السلام - مات مصلوباً، إلا أنهم يختلفون في سبب صلبه , فاليهود يزعمون أن المسيح كفر بالله لهذا حملوا عليه وطالبوا بدمه وزعموا أنه مات مصلوباً, والموت على الصليب يستلزم اللعنة عندهم. ولقد ورد في سفر التثنية بيان ذلك:(وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنها في ذلك اليوم؛ لأن المعلق ملعون من الله.([18]) ، **و**أما النصارى يعللون ذلك بأنه: صلب فداء للبشر لتخليصهم من خطيئة أبيهم آدم - عليه السلام - وهي أكله من الشجرة التي نهي عنها , فانتقلت تلك الخطيئة إلى أبنائه, وأغضبت الله عليهم , فكان لابد من وسيط يتحمل هذا الإثم ويرضى بأن يموت على الصليب ، وهذا الوسيط المخلص في زعمهم لابد أن يكون ذا وضع متميز خال من الإثم والخطأ, ولا يكون هذا إلا ابن الله, الذي هو الله في زعمهم!, ثم لابد أن يكتسب الخطيئة عن طريق الجسد, وهذا ما جعله يتجسد في صورة عيسى ، ويخرج من بطن مريم ثم يموت على الصليب فداء للبشر وترتفع عنهم تلك الخطيئة([19]).

قصة الصلب وردت في الأناجـــيل: أن المسيح - عليه السلام - طلبه اليهود ليقتلوه؛ لأنه في زعمهم كفر بالله , فدلهم على مكانه أحد أتباعه وهو يهوذا الإسخريوطي بعد أن أغـــروه بالمال , فقبضوا عليه ليلة الجمعة بعد أن كان قد فرغ من صلاة طويلة

تضرع وتوسل فيها إلى الله - عزوجل - أن يذيقه هذه الكأس ثم ساقوه إلى دار رئيس كهنة اليهود الذي تحقق من أنه مستحق للقتل ثم حمل إلى دار الوالي الروماني الذي حكم عليه بالصلب بناء على رغبة اليهود , فصلب الساعة الثالثة صباحاً من يوم الجمعة ومات على الصليب الساعة التاسعة مساءً بعد أن صاح (إلهي إلهي لماذا تركتني([20]) ، ثم نزل من الصليب في تلك الليلة وأدخل قبرا بقي فيه تلك الليلة ثم نهار السبت ثم ليلة الأحد, ولما جاءوا إليه صباح الأحد وجدوا القبر خالياً ، وقيل لهم : إنه قام من قبره ، ثم أنه ظهر لهم في الجليل وكلمهم وبقي معهم أربعين يوماً ثم ارتفع إلى السماء وهم ينظرون إلي، .هذا ما ورد في الأناجيل عن قصة الصلب إجمالاً([21]) إن قضية صلب أو وفاة عيسى هو أمر مهم بالنسبة للمسلمين ؛ لأنهم يؤمنون أن المسيح سيعود قبل نهاية الزمان ، و يؤمن المسلمون أن المسيح لم يُصلَب، ولكن تم رفع جسده إلى السماء من قبل الله، ويقول الله - تعالى - :{ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**}([22])

المبحث الثالث ــ منهج الجاحظ في الردّ على النصـــارى.

تعد رسالة الجاحظ (المختار في الرد على النصارى) من أوجــز رسائله. وتكتسب هذه الرسالة أهمية عظيمة ، وتنبع أهميتها في كونها من أقدم النصوص التي وصلتنا في تصوير حركة الجدال الديني في زمن الجاحظ ضد اليهود والنصارى ، كما أن هذه الرسالة تكشف عن جانب من عبقرية الجاحظ ، فهو ليس أديبا ناقدا فحسب، لكنه الى جانب ما عرف عنه هو عالم بالأديان مطلع على كتبها ،ملم بعقائدها وتفاصيلها ، فقد عرض الجاحظ بعض المسائل المهمة التي يعتقدها النصارى ضد المسلمين ، ثم رد عنها مسألة مسألة فألزم وأفحم ، ثم سألهم بعد ذلك سؤالات دامغة عن ديانتهم ومعتقداتهم ومذاهبهم، والرسالة عبارة عن استعراض لمطاعن النصارى على الإسلام ،ثم تفنيدها ودحضها ،ويلى ذلك سؤالات يطرحها الجاحظ على النصارى ، ثم مجادلة عقلية دينية ، ومما يوضح ويبين منهجه ما يقوله في بداية رسالته بقوله: " أما بعد، فقد قرأت كتابكم، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس، والذي خفتموه على جواباتهم من العجز، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل، ومن حسن معونتهم بالجواب"([23]).

من الواضح انه صاغ على لسانهم أسئلة افتراضية كعادة بعض الكتاب آنذاك .هذا النوع من الأسئلة يفصح لنا عن المناخ الجدلي السائد بين النصارى والمسلمين ، ذلك

مما يكشف لنا عن رغبة الجاحظ في دحض حجج النصارى والدفاع على الإسلام والمسلمين ، كم تبرز لنا القدرة العلمية والمهمة الشاقة التي لا يقوم بها الا العلماء العارفون ، ويقول الجاحظ - شارحاً لمهمته - : " وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم، بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية، ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم، وانتشار مذهبهم ، وتهافت دينهم ، ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحس ونساله القصد في القول والعمل وأن يكون ذلك لوجهه ولنصرة دينه "([24])، وبعد أن أظهر اخلاص نيته نجده ينهج إلى مسالة مهمة ، وهي : لماذا كانت النصارى أحب إلى عـــوام المسلمين؟

يجيب على ذلك بأسباب كثيرة ، ووجوه واضحة منها: " أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب في شدّة التمكن وثبات الحقد، وإنما يعادي الإنسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد، ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام من سائر الناس وسائر العرب أطول، وعداوتهم أشد".([25])، ويؤسس على نظرته النفسية الأخلاقية هذه ، تفسيره لوجوه العلاقة بين المسلمين واليهود في المدينة .." فلما صار المهاجرون لليهود جيرانا، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار، مشاركة في الدار، حسدتهم اليهود على النعمة في الدين، والاجتماع بعد الافتراق، والتواصل بعد التقاطع، وشبهوا على العوام، واستمالوا الضعفة، ومالئوا الأعداء والحسدة، ثم جاوزوا الطعن وإدخال الشبهة، إلى المناجزة والمنابذة بالعداوة، فجمعوا كيدهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم، وإخراجهم من ديارهم، وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر، وترادف لذلك الغيظ، وتضاعف البغض، وتمكن الحقد"([26]) ، وفي المقابل كانت النصارى لبعد ديارهم، من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ومهاجره، لا يتكلفون طعنا، ولا يثيرون كيدا، ولا يجمعون على حرب، فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ، ولينها على النصارى، ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجنبة ما حببهم إلى عوام المسلمين.، وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود".([27])، وأمر آخـــر، وهو من أمتن أسبابهم ، وأقوى أمورهم، وهو تأويل آية غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واحتجت بها، واستمالت قلوب الرعاع والسفلة، وهو قول الله - تعالى- : (**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا**

الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ).([28]) ، وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله - تعالى- لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم: الملكانية واليعقوبية، وإنما عني أمثال بحيرا ، والرهبان الذين كان يخدمهم سلمان([29])

وهناك سبب آخـــر في إجابة الجاحظ على هذه المسألة ، هو أن النصرانية كانت فاشية في العرب إلا في مُضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفش فيها النصرانية، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها: على لخم، وغسان، والحارث بن كعب بنجران، وقضاعة ، وطي، في قبائل كثيرة، وأحياء معروفة ، ..وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة، إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة. ومعظم اليهودية إنما كانت بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى، في ولد هارون، دون العرب. فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذي كان فيهم، والقرابة التي كانت لهم. ثم رأت عوامنا أن فيها ملكا قائما، وأن فيهم عربا كثيرة، وأن بنات الروم ولدن لملوك الإسلام، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء، ولم يروا ذلك في اليهود. ([30])

هذا مجمل ما عرضه الجاحظ في تفسير وتوضيح هذه المسألة في كون النصارى أحب إلى المسلمين أكثر من غيرهم ، وكان للمنهج الوصفي ، والتاريخي ، والمقارن الدور الكبير في هذه المسألة الذي مكنه من الوصول إلى الحقائق والمعلومات.

وفي جانب آخر مغاير نجد الجاحظ يحـــذر من النصارى من خطر النصارى المتمثل في نشر الإلحاد والزندقـــة وإثارة الشبهات ، وبعد أن أفاض في تحليل الأسباب التي لينت قلوب المسلمين على النصارى نجده في جانب آخـــر، وهو الجانب (العقدي الديني) يوضـــح خطرهم على المسلمين بشكل عام فقال: " ودينهم - يرحمك الله- يضاهي الزندقة ، وهم أسباب كل حيرة وشبهة ، والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيرا أو مترنحا منهم، وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة : ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة - ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره - هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى، على أنك لو عددت

اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك، ([31])، ويرى الجاحظ ـ إلى جانب ذلك ـ أن فيهم " شدة المعاندة واللجاجة، والإرصاد لأهل الإسلام بكل مكيدة"([32]) أما خطرهم المباشر فيقول : هذه الأمة لم تبل باليهود، ولا المجوس، ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالأسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين، والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما [تجرءوا] إلى علمائنا، وأهل الأقــدار منا، ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف.([33])، ويرى الجاحظ أن النصارى كانوا بمثابة الجســر الذي عليه المذاهب الفاسدة الغالية والملحدة الى البيئة الاسلامية، " ...على أن بين دينهم وبين الزندقة نسبا، وأنهم يحنّــون إلى ذلك المذهب."([34])

مــن الواضــح في منهج الجاحظ استخدامه المنهج الوصفي التاريخي الذي يصور فيه حقيقة النصارى وخطرهم المباشر على الإسلام والمسلمين .

غموض قولهم في المســـــيح : الجاحظ أول من ناقش هذه النقطة وأخذها عنه علماء المسلمين الذين جاءوا بعده ، واهتموا بالمقارنة بين الأديان ، فاستخدم المنهــج التحليلي الوصفي والعقلي في توضيح وإبانة ما عليه النصارى من تناقض وخلط في أقوالهم الإلهية ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون للنصارى عقيدة إلهية ثابتة، ويقول في ذلك " ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولك في المســيح ، لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حد النصرانية ، وخاصة قولهم في الإلهية ، وكيف نقدر على ذلك؟ وانت لو خلوت ونصرانياً نسطورياً فسألته عن قولهم في المسيح ، لقال لك قولاً، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله ، فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف قول أخيه وضده .، وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية، ولذلك صرنا لا نعرف حقيقة النصرانية ، كما نعرف جميع الأديان. على أنهم يزعمون أن الدين لا يخرج في القياس ، ولا يقوم على المسائل، ولا يثبت في الامتحان, وإنما هو بالتسليم لما في الكتب والتقليد للأسلاف ، ولعمري أن من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بعذرهم.."([35])

ثم يرد عليهم قولهم إن اليهود لا تقر بذلك بقوله : أما قول اليهود في عيسى: " إنه صاحب رقى ونيرجات، ومداوي مجانين، ومتطبب، وصاحب حيل وتربص خدع، وقراءة كتب، وكان لسنا مسكينا، ومقتولا مرجوما، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك، وصاحب شبك، وكذلك أصحابه. وأنه خرج على مواطأة منهم له، وأنه لم يكن لرشدة.

وأحسنهم قولا، وألينهم مذهبا من زعم أنه ابن يوسف النجار. فكيف تستشهدون قوما هذا قولهم في صاحبكم حين قالوا: كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولودا، فيجهله الأولياء والأعداء"([36]) هذا دليل عقلي يطرحه الجاحظ على عدم جواز الاخذ بأقوال اليهود في عيسى عليه السلام.

انقطاع سند النصرانية وتناقض كتبها : هذه المسألة من أهم المسائل التي تعرض لها الجاحظ ، وهي الطعن في رواة أناجيل النصارى وعدم اتصالهم بالمسيح ، أي : انقطاع سند النصرانية وأنه لا يثبت للنقد والتمحيص ، كما أن متن الأناجيل مضطرب متناقض ، والجاحظ بهذا قد فتح باب الجدل الموضوعي المتركز على أساس منهجية متينة من نقد النص والمتن معاً ، وهو لا يتأتى إلا باستقراء النصوص ودراستها دراسة علمية ، ودراسة سندها ، وهذا العمل يعد عملا منهجيا رائدا في هذا المجال. ومما قاله الجاحظ في هذا العمل :فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ، أي : كلام المسيح في المهد ، وجوابنا أنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: اثنان منهم من الحواريين بزعمهم: (يوحنا) و(متى). واثنان من المستجيبة وهما: مارقش (مرقس) ولوقش (لوقا)، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان، ولا تعمد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على اقتسام الرياسة، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له ، فإن قالوا: إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا وأحفظ من أن ينسوا شيئا، وأعلى من أن يغلطوا في دين الله - تعالى - أو يضيعوا عهدا. قلنا: إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل، وتضادها في كتبهم ، واختلافهم في نفس المسيح، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم وغفلتكم عنهم.([37]) ، ويركز الجاحظ فكرته عن سند الاناجيل بأن أصحابها الأربعة ليسوا من حواريي المسيح وأن زعـــم النصارى أن اثنين منهم من الحواريين ومن ثـــم لا يؤمن عليهم غلط ولا نسيان ولا تواطؤ على كذب وإن دعوى النصارى أفضلية هؤلاء الاربعة ، وسمو منزلتهم وترفعهم عن ذلك ، ينقضه في رأي الجاحظ تناقض رواياتهم، وتعاند معاني كتبهم وتكاذبها ، واختلاف شرائعهم مع اختلافهم في المسيح نفسه . هذه المسالة من اهم المسائل التي نقدها الجاحظ وافلح في نقدها، وما يمكن قوله ان رواة الاناجيل لم يكونوا على اتصال بالمسيح ،ونصوص الأناجيل يشوبها كثير من التناقض والاضطراب ، وهذا ما اثبته الجاحظ من خلال استدلالاته ودره على النصارى.

الخاتمة :

وفي نهاية البحث توصل البحث إلى النتائج الآتية :

1- تكشف لنا رسالـــة الجاحظ ـ الرد على النصارى ـ عن اطلاعه العميق بالعهد القديم أو التوراة كما تظهر معرفته بالأناجيل ، سنداً ومحتوى

2- حـــرّك علماء المسلمين ودفعهم إلى البحث في مصادر النصارى الأصلية ، أو فيما يسمى بالكتب القديمة ولا شك أن الجاحظ استقى من هذه الكتب ، وكانت له خير عون في الرد على النصارى .

3- جمع الجاحظ إلى جانب القدرة الفنية الأدبية القدرة الجدلية الكلامية ، ونجد قد تمسك بالمقاييس والطرق الكلامية في المعالجة والتقويم .

4- الجاحظ من كبار رجالات المعتزلة ، بل رأس الفرقة الجاحظية المعروفة ، وعلى الرغـــم من أنه كان معتزلي المذهب إلا أنه لم يكن موافقاً لمتكلمي المعتزلة موافقة تامة.

5- عالج في ايجاز شديد مسألة السند في أناجيل النصارى ، وأشار إلى انقطاعه ، ودلل على ذلك ، وكشف عن بعض ما فيها من تنا قض وتدابر .

6- أظهر معرفة جيدة بكتب اليهود والنصارى في ترجمتها العربية حيث أنه كان ضليعا بالعربية وعلومها.

7- الجاحظ ومن خلال رده على النصارى يعد مرجعاً في حقل الجدل الديني ضد اليهود والنصارى ، ورسالته ذات قيمة كبيرة ؛ لأنها من أقدم الآثار العلمية ـ إن لم تكن اقدمها ـ التي وصلتنا في هذا الحقل العلمي القديم .

8- ، وأن إسرافهم في تأويل صفات الله - تعالى وأسمائه لا يقرهم عليه أهل السنة والجماعة.

الهوامـــــش:

- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادى ،ط 8،مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان،2005 م ص622.

1 – سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الحديث- القاهرة،2006م،9/ 413.

[1]- تاريخ أداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مكتبة الإسكندرية، مصر،ج2، ص 170

1 - السخرية في أدب الجاحظ، عبد الحكيم محمّد حسين، ، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع والإعلان مصراتة، ليبيا 1988م، ص 31.

[1]- المرجع السابق ،ج 2، ص 171

[1]- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج2، ص 307

[1]- معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: ج 16، ص 75.

[1]- تاريخ أداب اللغة العربية، مرجع سابق، ج 2، ص 171.

[1]- تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 307.

[1]- تاريخ المعتزلة فكرهم وعقيدتهم ، د. فالح الربيعي، دار الثقافة للنشر، ص107

[1]- المرجع نفسه ، ص ذ08.

[1]- معجم الأدباء، مرجع سابق،ج16، ص 113.

[1]- نفس المرجع ،ج16، ص 114

[1] - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية،ط1، دار الشامية، جدة ،1996م،ص67.

[1]- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد بن طاهر التنير الشرقاوي البيروتي، مؤسسة الزهراء للدعاية والنشر والتوزيع, 1989ص35

[1]- محاضرات في النصرانية, محمد ابوزهرة،ط3،دار الفكر العربي،القاهرة،م1966م،ص100.

[1]- النساء،171.

[1]- الكتاب المقدس ،ط1،دار الكتاب المقدس بمصر ، القاهرة، التثنية،الإصحاح:22/21.

[1]- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية, مرجع سابق ص304-305.

[1]- متى، الاصحاح،27: 46.

[1]- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية, مرجع سابق،ص306.

[1]- النساء157.

[1]- ثلاث رسائل، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الارقم، بيروت- لبنان،ص 63.

[1]- المصدر نفسه،ص65.

[1]- المصدر نفسه ص66.

[1]- المصدر نفسه، ص66.

[1]- المرجع نفسه، ص66.

[1]- المائدة :82-85.

[1]- ثلاث رسائل، مصدر سابق،ص66.

[1]- المصدر نفسه، ص67 .

[1] - المصدر نفسه،ص 69.

[1]- المصدرنفسه،ص 69.

[1]- المصدرنفسه، ص71
[1] - المصدر نفسه، ص71.
[1] - المصدر نفسه، ص73.
[1] - المصدر نفسه،ص 74.
[1] - المصدر نفسه، ص75،